

الخروج من الزنآنة الانفرآدفة

2019-06-19 مرتضى معاش

كثيرآ مَا تثور التسآؤلات في أعمآق التفكير النقدي عندما تبدأ المحآولة لاستكشآف جوهر المآسآة التي نعيشها والتخلف الذي استشرى في كيان الأمة. إذ إن الأمة تملك كآفة مقومات بناء التاريخ النابض بالحيوية والفعل والتقدم، ولكنها حينئذ تبقى مثل ذلك التآجر الذي يملك رأسمالآ للنآح في تجآرته فيفشل لأنه فآقد لتلك الحلقة التي تحقق له التآكل في شروط النآح.

والآمة تملك كآفة مقومات التقدم من ذلك المخزون الفكري الإسلامى الكبير الذي يتميز في حقيقتة بالقدرة على الإحآطة بكل زمن ومكان، إلى ذلك الينبوع الآقتصادى الفآئض، وآلى تلك العقول الجبآرة التي وجدت في المهجر بعض ضآلتها. ولكن مع كل ذلك فآن الأمة تفتقد إلى تلك الحلقة التي تمثل المحرك الحقيقى للتاريخ وذلك هو الإنسان: الرأسمال الحقيقى والجوهر الفعلى للآفة.

إن الإنسان في عالمنا محطم في داخله مهشم في إرادته ذليل في نفسه قد أضع ذاته فأصبح بلا روح وآرادة، عآجز عن التفكير يآس من المستقبل أسير لآضره ورغبآته الآنية. إذ إن القدرية هي التي تحكمت في ذواتنا فجعلتنا أآسادآ آآوية ترضى بما يقدم إليها من آجل أن تبقى مستمرة في آيبوبتها وذهولها وانفصآمها.

لقد تحولت مشكلتنا في جوهرها إلى مشكلة فرد بلا إرادة ورأس بلا فكر ووجود بلا حقيقة، وعندما يفقد الفرد قدرته على تملك إرادته وذآته تسترقه الدنيا ويصبح عبداً لأهوائه ومطمعاً لنزوات الآآرين، وكيف لمن استعبدته الدنيا إن يأمل في تحقيق مستقبل زآهر وتاريخ وضاء، والفرد بلا حرية ذآتية يبقى مجرد آسد بلا إنسانية. يقول الإمام آلى (ع): حب الدنيا يفسد العقل ويصم القلب عن سماع الحكمة.. ويذل الرقاب.

وكم من الرجال تنآسوا الحرية الذآتية وتغآفلوا عن حركة التاريخ نحو المستقبل آداروا ظهورهم

لأهداف الامة ومصلحتها العامة عندما غرقوا في أوهام مصالحهم الدنيوية الضيقة، حيث اتعبهم الجهاد فلف اليأس نفوسهم بضبابية خلفت رؤية عاجزة عن متابعة الواقع، فاستسلموا لرغبات الحاضر وكبلوا أنفسهم بقيود المعيشة اليومية والقلق على توفير المستقبل المادي الآمن ولو كان ذلك على حساب مصير الامة ومستقبلها، ولاشك انها معضلة تستوجب الكثير من التأمل والتفكير. يقول تعالى في كتابه الكريم: (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).التوبة24

وعندما يسجن الفرد ذاته في الزنزانة الانفرادية لجسده يتخلى عن جوهره الإنساني باغتيال نفسه وإخوانه وامته عبر إثارة النزاعات والانشقاقات والصدمات من اجل تحقيق مطامعه الشخصية فقط ولو كلف ذلك استمرار مأساة الأمة وأزماتها.

ومن هنا يتحرك الخوف لقمع التغيير الإيجابي نحو المستقبل، لان التغيير يثير الهواجس وقد يأتي بمفاجئات قد تعكر نمط الحياة الروتينية والمعيشة اليومية التي أدمنها الفرد وتروض عليها فيقبل الذل والعبودية على ان يقدم تضحيات سامية. ذلك ان التغيير الحقيقي ينبعث من تلك التضحيات المقدسة التي يقدمها المجاهدون في سبيل الله من اجل الأهداف الإنسانية والنبيلة. وهذا الأمر يعتمد أساسا على وجود الذات المتحررة من رغباتها وأنانيتها، فالحرية الذاتية هي التي تؤسس في الذات روح الجهاد والصبر والاستقامة. إننا بقبولنا لمنطق الامر الواقع والاستكانة للقدر وعبودية ارواحنا نقمع الروح الحقيقية للتغيير.

وإذا استسلم المجاهدون وارتضوا بمنطق السياسة وخديعة المصالح الفئوية وأصبح اللامنطق هو المنطق فان ذلك يعني الدخول الإرادي في الزنزانة الانفرادية لأوهام التسيير والقدر وتحطيم مقومات الذات وتهشيم روح التحرر وبالتالي فقدان عناصر الأصالة وقوة الفكر والاستسلام المطلق للتغريب والتدجين. فعندما يسيطر الضعف على النفس تصبح سهلة الاختراق فكريا وثقافيا وأخلاقيا ودينيا، فالذوبان الذي تشهده أجيال اليوم وانصهارها في قوالب وأفكار الآخرين وخصوصا الحضارة الغربية هو دليل على مدى الانهزامية الذاتية وفقدان الثقة بأفكارنا وعقائدنا وحضارتنا.

ليس هم الأقوياء بأفكارهم وثقافتهم بل على العكس من ذلك فان الانهيار الأخلاقي والفراغ الروحي والخواء العقائدي قد بدأ يدمر اساساتهم، ولكننا نحن الضعفاء حين ذهلنا عن أنفسنا وتناسينا قوة أصالتنا وحقيقة إنسانيتنا.

نعم يمكن لنا ان نحقق الكثير من التغيير في المستقبل وبمقدار الواقعية لو أعدنا بناء الإنسان واعدنا له احترامه لنفسه وحققنا روح التفكير الواعي في عقل الفرد، ولو اننا آمننا وابقنا ان مصلحة كل واحد منا في مصلحة الكل وليس الجزء حينها نستطيع ان نتوقع من الإنسان المسلم التحرر الذاتي والاستقلال الفكري والقدرة على فهم الواقع فهما تحليليا قائما على منطق الشجاعة والإقدام والتحرر من الخوف والقلق.

وهذه المفردات الأساسية: الحرية، التعددية، الأصالة، التغيير والتجديد، الثقة بفكرنا الإسلامي يمكن ان تكون بلسما واقعيا وليس دواء اعجازيا، ولكن بشرط واحد.. لو أردنا ذلك..!

* مقال نشر في مجلة النبأ-العدد 49-أيلول 2000/جمادي الثاني 1421